سي امحمد بن رحال ومستقبل الإسلام

أ.د صبرينة الواعر

أستاذة التعليم العالي

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار

قسنطينة

louaar.sabrina@ensc.dz

تدور إشكالية الدراسة حول إسهامات النخبة الجزائرية المثقفة في الدفاع عن الإسلام والهوية العربية الإسلامية الجزائرية أمام الإدارة الفرنسية وسلسلة قوانينها الجائرة في حق الإسلام والمسلمين الجزائريين. وقد اخترنا كنموذج للدراسة سي أمحمد بن رحال الندرومي صاحب الثقافة المزدوجة العربية والفرنسية والذي عرف لدى البعض سواء من الجزائريين أو الفرنسيين بتوجهاته الاندماجية وتأثره بالثقافة والمدنية الأوروبية. لكنه في الواقع يفاجئنا بدفاعه المستميت عن الإسلام واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، وعمود من أعمدة الهوية الجزائرية. وقد خصصنا مداخلتنا هذه لتسليط الضوء على إحدى تدخلاته أمام الأوروبيين وبالضبط أثناء انعقاد مؤتمر المستشرقين في دورته 11 سنة 1897؛ حيث عرض يومها على أسماعهم خطابه حول مستقبل الإسلام، فما هو فحوى هذا الخطاب؟ وما هي الأفكار والحلول التي قدمها ابن رحال للسلطة الفرنسية في الجزائر فيما يتعلق بالإسلام؟

الكلمات المفتاحية:

سي امحمد بن رحال، سياسة الاندماج، الإسلام، الإدارة الفرنسية، الجامعة الإسلامية

The problem of the study revolves around the contributions of the Algerian intellectual elite in defending Islam and the Arab-Islamic identity of Algeria before the French administration and its series of unjust laws against Islam and Algerian Muslims. As a model for the study, we chose Si M'hamed Ben Rahal al-Ndrumi, who had a dual Arab and French culture, and who was known to some, whether Algerian or French, for his assimilatory tendencies and his influence on European culture and civilization. But in reality, he surprises us with his relentless defense of Islam and the Arabic language as the language of the Qur'an, a pillar of Algerian identity. We have devoted our intervention to highlighting one of his interventions before the Europeans, exactly during the Orientalist Conference in its 11th session in 1897, where he presented to them his speech on the future of Islam. What ideas and solutions did Ibn Rahal offer to the French authority in Algeria with regard to Islam ?

Keywords :

Si M'hamed Ben Rahal, Integration Policy, Islam, French Administration, Panislamism.

المقدمة:

تعددت سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر، فأحاطت كافة الجوانب ولم تترك واحدا منها إلا وأعادت هيكلته وإدارته وفقا لقوانينها وأهدافها، لكن هذه السياسة رفضت من طرف الجزائريين رفضا شديدا، ففي الوقت التي ظنت فيه الإدارة الفرنسية أنها تمكنت من إسكاتهم ومحاصرتهم بعد قضائها على أهم انتفاضة شعبية بعد مقاومة الأمير عبد القادر، وهي ثورة المقراني والشيخ الحداد سنة 1871، وجد الجزائريون طريقا آخر للمقاومة لا يعتمد السلاح كأسلوب للدفاع، ولكن سلك طريق الحوار والإقناع مع الإدارة الفرنسية، وهو ما طغى على الساحة السياسية في الجزائر حتى الإعلان عن اندلاع الكفاح المسلح في 1 نوفمبر 1954م، ولقد اتبعت هذا الأسلوب كافة الحركات والتيارات الجزائرية السياسية والإصلاحية، وإن كان قد سبق للجزائريين معرفة المقاومة السياسية في بدايات الاحتلال الفرنسي من طرف شخصيات جزائرية مرموقة على رأسها حمدان بن عثمان خوجة [1]، رغم نزعته الاستقلالية وولائه المطلق للخليفة العثماني عكس من أعقبه من شخصيات سياسية ومنهم: محمد بن رحال الذي أثبت طيلة مشواره السياسي شرعية الإدارة الفرنسية، وكان ذلك المنطلق الأساسي في محاورته معها، على غرار كل الحركات والتيارات التي عاصرها والتي ظهرت في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فكان ابن رحال من أهم المحاورين الذين عرفتهم الإدارة الفرنسية، وامتاز دفاعه وتدخلاته في القضايا الأهلية بالصراحة والوضوح الشديدين.

ونحن نسعى من خلال هذه المداخلة إلى إيضاح موقف ابن رحال من السياسات التي اتبعتها الإدارة الفرنسية لفرض سيطرتها على الجزائر والجزائريين، وسيكون تركيزنا على الجانبين السياسي والثقافي.

1- <u>محمد بن رحال المولد والنشأة:</u>

هو محمد بن حمزة بن بشير ابن رحال، وسجل في الحالة المدنية الفرنسية رحال محمد بن حمزة[2]، وتشير معظم المصادر التي تكلمت عنه استنادا لملفه الإداري انه ولد سنة 1856[3]، في حين ذكر عبد القادر جغلول أن سي محمد بن رحال ولد في 3 شوال 277هـ، الموافق لـ16ماي 1857[4]، ولا

---

[1]-ابرز حمدان بن عثمان خوجة تأييده لمقاومة أحمد باي فأجهد نفسه بتوفير وإيجاد وسيلة لتقديم مساعدات حربية إلى أحمد باي، فعرض على السلطة العثمانية إمكانية نقل أسلحة من طرابلس إلى قسنطينة بواسطة الجمال، على أنها بضائع منقولة إلى الحرب، وحسب رأيه هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها مساعدة أحمد باي لتشجيعه للتخلص من الحراسة المشددة والمخبرين من المسلمين (الخونة)، خاصة بعد تقاعس وتماطل باي تونس. للمزيد ينظر: عميراوي (أحميدة)، <u>دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)</u>، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1987، ص188.

[2]-Agéron (Ch-R), "Si M'hammed Ben Rahal, Une Conscience inquiète dans une Algérie en Mutation", in, <u>Les Africains,</u> T8, JA, Paris, 1977, p317.

[3]-Ibid, p317.

[4]Djeghloul (A), <u>Huit étude sur l'Algérie</u>, ENAL, Alger, 1986, p3.

ندري ما هي الجهة الذي استند عليها في ذكر هذا التاريخ، إلا أن شهادة عائلته تقول أن سي محمد بن رحال ولد في 16 ماي 1858[5].

أما عن مسقط رأسه، فكان بحي السوق في الشمال الغربي لمدينة ندرومة[6]، ومحمد بن رحال سليل عائلة حضرية عريقة بالمنطقة لها نشاطات عديدة، فهي كانت تشتغل بالتعليم والقضاء والزراعة، والصناعة والتجارة أيضا، ومحمد هو الابن الثاني لحمزة ابن رحال*، هذا الأخير الذي برز وتفوق في الفقه والتفسير على طريقة مختصر الشيخ خليل بن إسحاق[7] في الفقه المالكي وشروحه، وهو مصدر القضاة في الأحكام[8]، ونظرا لمكانته وشهرته عينه الأمير عبد القادرقاضيا و إماما للمسجد الكبير لمدينة ندرومة سنة 1839[9].

إن المكانة الاجتماعية والثقافية التي حظيت بها عائلة ابن رحال عامة وحمزة والد محمد خاصة، ساهمت دون شك في تسهيل الطريق لمحمد بن رحال وتنشئته تنشئة صحيحة، فقد اشتهر والده بغزارة علمه في مجال الفقه والتفسير الذي أخذه من كتاب سيدي خليل –كما ذكرنا سابقا[10]، وفي مرحلة الطفولة تلقى محمد بن رحال المبادئ الأولى للتربية الدينية داخل أسرته من طرف مؤدب كما جرت العادة داخل الأسر الجزائرية آنذاك، كما أن ثقافة والده حمزة الدينية والأخلاقية إلى جانب منصبه كقاضي وإمام للمسجد الكبير بندرومة، ساهمت في تكوين ثقافته، ولقد حفظ الطفل محمد خلالها القرآن الكريم، وكيفية الوضوء والصلاة، ولقد كانت هذه الطريقة متبعة آنذاك وسط العائلات أو من قبل المؤدبين في تلك الفترة، فالطفل يتعلم القرآن الكريم ويتعلمه ويحفظه دون تفسيره.

ويذكر الشيخ عبد الرحمن محمد الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام، أن الطفل محمد بن رحال ألحقه والده بالكتّاب لحفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز بعد السن الخامسة من عمره[11]، على غرار الأطفال في سنه والعادة المتبعة في البيوت الجزائرية منذ زمن طويل، ونرجح أن الكتاب الذي درس فيه محمد بن رحال كان تابعا للزاوية الدرقاوية (السليمانية) التي تنتسب إليها العائلة.

---

(5)-Agéron (Ch-R), Op.Cit, p317.

(6)-Chourfi (Achour), Mémoire algérienne, Dictionnaire Biographique, Ed Dahleb, Alger, S.D, p186.

*–يذكر عاشور شرفي في مذكرات جزائرية أن محمد بن رحال هو الابن السادس لحمزتين رحال.

(7)-Chourfi (Achour), Op.Cit, p186.

(8) –سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص422.

(9) –زرهوني (الطاهر)، " ندرومة بين الماضي و الحاضر "، مجلة الثقافة، ع 99، 1987، ص165–166.

(10)-Chourfi (Achour), Op.cit, p186.

(11) –الجيلالي (محمد بن عبد الرحمان)، تاريخ الجزائر العام، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص466.

وبعد أن أتم محمد بن رحال دراسته الإبتدائية وسط عائلته، أدخله والده حمزة المدرسة العربية/الفرنسية، التي فتحت بندرومة في جانفي 1865، لكنها لم تستقطب عددا كبيرا من التلاميذ كحال باقي المدارس في كافة القطر الجزائري نتيجة رفض الأولياء لهذا النوع من التعليم، الذي اعتبروه مناقضا لدينهم ولعاداتهم الإسلامية.

كان محمد بن رحال من الأوائل الذين انتسبوا لهذه المدرسة، وكان عمره آنذاك تسع سنوات. تعلم محمد بن رحال في هذه المدرسة مبادئ القراءة والكتابة والحساب بالفرنسية[12]. وميز هاته المدرسة أنها ضمت أبناء الأعيان فقط، الموظفون في الإدارة الفرنسية. ويقول غراندجيوم (Grandguillaume) في هذا الشأن: «إن معظم الشباب المسجلين في هده المدرسة أوليائهم من ذوي الأملاك، والذين يجدون بعض الفائدة في تعلم الفرنسية، عكس الأكثرية الساحقة التي رفضت هذا النوع من المدارس، والذي تجده بعيدا كل البعد عن لغتها ودينها ومعتقداتها»[13].

بعد ذلك انتقل محمد بن رحال إلى ثانوية الجزائر وهي ثانوية عربية/فرنسية فتحت أبوابها في مارس 1858[14]، وقد انتهجت هذه السياسة الفرنسية الجديدة بعد أن رفض الأهالي المدارس الفرنسية، ومنعوا أولادهم من الانتساب إليها. لذلك وجدت فرنسا أن الحل يكمن في الازدواجية اللغوية والفكرية، وذلك بوضع العربية إلى جانب الفرنسية، والمعلم الفرنسي إلى جانب المعلم المسلم، ودراسة المعارف الدينية وإلى جانبها العلوم الفرنسية، على أن يكون هذا بإشراف مفتي أو قاضي. لكن هذه الخطة لم تدم، كما أن الكثير من المسلمين عارضوها إلا القليل منهم، فرغم الازدواجية اللغوية كانت اللغة الفرنسية هي المادة الأساسية في هذه المدارس[15]،* وحين أحس الفرنسيون بهدوء الأوضاع أغلقوا هذه المدارس ، فقد اغتنموا فرصة اندلاع ثورة المقراني سنة 1871 وقيام الحكم الجمهوري في فرنسا الذي حمل معه حماسا للاستعمار والإمبريالية في فرنسا، قرر الحاكم العام الجديد الأميرال دي قيديون (De Guedyon) إغلاق المدارس العربية الفرنسية بقرار 23 أكتوبر 1871 وذلك عقابا لأبناء العائلات التي ثارت ضد فرنسا، كما

---

[12] –زرهوني (الطاهر)، مقال سابق، ص168.

[13]-Grandguillaume (Guilbert), Nedroma, l'évolution d'une Médina, Leiden, EJ, Brill, 1976, p134.

ويقول جراند غيوم أنه ورد تقرير سنة 1867 يوضح أن عدد تلاميذ هذه المدرسة لم يتجاوز 30 تلميذا، وهم كلهم من الأعيان.

[14]Ibid, p134.

[15]-Agéron (Ch-R), Op.Cit, p319.

*–ظهر التعليم المزدوج الخاص بالجزائريين ابتداء من سنة 1850، وكان من نتائج تقارير كتبها مسئولو المكاتب العربية (وهم عسكريون) عن وضعية التعليم الإسلامي وموقفه من المدارس الفرنسية، ومن بينها تقرير الجنرال بيدو، وتقرير فاليري، وتقرير الجنرال دوماس، وتقرير ليبيشو، وتقرير ديهوتيبول في فترة الأربعينيات من القرن التاسع عشر، حيث نصبت لجان رسمية وزار الجزائر أمثال أليكس دي طوكفيل. ينظر: سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر...، مرجع سابق، ج3، ص21.

أن هذا النظام الجمهوري الجديد نادى بدمج وفرنسة المؤسسات الخاصة بالأوروبيين بمثيلاتها بفرنسا، وهذا بطبيعة الحال ليس في صالح التعليم الإسلامي[16].

وبصدور مرسوم إغلاق هذه الثانوية العربية/الفرنسية، انتقل محمد إلى الثانوية الحضرية الرسمية؛ وهي ثانوية فرنسية بالجزائر العاصمة (Lycée d'Alger) وظل بها حتى تخرج سنة 1874، وقد شهد لمحمد بن رحال بالتفوق والنجاح في دراسته واتقانه للغة الفرنسية، وقد كتب عنه صديقه الجنرال بول آزان سنة 1928: «كان ابن رحال تلميذا ممتازا ولامعا في ثانوية الجزائر، وبعد تخرجه منها سافر إلى باريس وأقام فيها لإكمال دراسته... وابتداء من سنة 1878 صار مرحبا به ومقدرا في الأوساط المثقفة والمتميزة»[17].

بعد تخرجه من ثانوية الجزائر، وجهه والده حمزة نحو مدرسة عسكرية فرنسية المرجح أنها سانت سير –ولا نعرف دافعه من وراء هذا؟ !– المهم أنه تخرج منها برتبة ضابط[18]، غير أن محمد بن رحال لم يمارس هذه الوظيفة العسكرية، لأنه خالف والده كقايد لمدينة ندرومة سنة 1878[19]، وكان هذا المنصب القاعدة التي انطلق منها لممارسة السياسة ومعالجة ومناقشة القضايا التي تخص الجزائريين.

2– ولوج سي محمد بن رحال معترك السياسة:

كان سي محمد بن رحال سليل عائلة تعتبر من أعيان مدينة ندرومة؛ يكفي أن والده كان قاضياللمدينة، وقد حافظ على مكانته ومنصبه بعد السيطرة الفرنسية عليها سنة 1842، وسرعان ما أصبح آغا ندرومة وكافة القبائل المحيطة بها، وقد تولى نجله محمد بن رحال المنصب نفسه ولكن برتبة أقل وهي رتبة القائد سنة 1874؛ لكنه أبرز مواقف وأعمال تفوق المهام الموكلة إليه، وقد ساعده في ذلك تفوقه العلمي والثقافي وإتقانه للغة الفرنسية وسيلة التخاطب الأساسية مع الإدارة الفرنسية، فبدأ في إيضاح موقف الجزائريين من مسائل وقضايا عدة؛ لعل أولها كان السبب الرئيسي في استقالته من منصبه، وهي قضية إلغاء الحكم العسكري سنة 1870، وتطبيق الحكم المدني الذي منح امتيازات كثيرة للمستوطنين الفرنسيين وقلص من نفوذ الزعمات المحلية وسلطات القبائل ، كما قلص من نفوذ القياد وحرمهم من حق تمثيل السكان الجزائريين في المجالس البلدية؛ فقرر محمد بن رحال الاستقالة من منصبه سنة 1884 .

---

[16] –المرجع نفسه، ج3، ص340–341.

[17]-Azan (Paul), "Si M'hammed Ben Rahal", in, L'Afrique française , Décembre, 1928, p522.

[18]-Agéron (Ch-R), Op.Cit, pP320.

[19]-Azan (Paul), Op.Cit, p522.

وقد سبق وأن أوضح ابن رحال رأيه حول الحكم المدني وتأثيراته السلبية على الجزائريين، لأنه نظام يخدم الكولون بالدرجة الأولى، ويجعل القايد مجرد لعبة في أيدي الإدارة الفرنسية دون أي سلطة، وكان له ذلك أثناء حضوره المعرض الدولي بباريس في ماي 1878[20].

إن استقالة ابن رحال من منصبه الإداري كانت بداية لنشاطاته السياسية التي بدأت بالبروز أكثر انطلاقا من سنة 1891، وهي سنة قدوم لجنة التحقيق التي دعى إليها مجلس الشيوخ بقيادة جول فيري Jules Ferry؛ بغرض دراسة أوضاع الجزائريين، وقد انتهى المشوار السياسي لابن رحال سنة 1925 حين انهزم في انتخابات اللجان المالية Délégations Financières.

3- <u>أراء سي محمد بن رحال حول الإسلام وسياسة الاندماج الفرنسية:</u>

عالج ابن رحال طيلة مشواره السياسي قضايا عدة تنوعت بين السياسية والاقتصادية والثقافية وكان من أهم تلك القضايا ليس من جانب ابن رحال فقط؛ بل من طرف السلطة الفرنسية قضية الاندماج L'Assimilation، فلا يخفى علينا أن أول المراسيم والقوانين التي وضعتها الإدارة الفرنسية، وحتى ما نصت عليه بعدها؛ كانت تصب في قالب إدماج الجزائر بفرنسا وجعلها مقاطعة من مقاطعاتها، وقد برز ذلك من خلال أول قوانينها الشهيرة وهو قانون الإلحاق عام 1834 La Loi de rattachement.

من منطلق أن سي محمد بن رحال من المثقفين الجزائريين المتخرجين من المدارس الفرنسية ويحسن اللغة الفرنسية وأدرى بثقافتها وحضارتها، فما هي وجهة نظره حول السياسة الفرنسية ، هل كان مؤيدا أم معارضا لها؟ وما هو موضعه بين النخبة والمحافظين؟

إن موقف ابن رحال بالنسبة لهذه النقطة واضح، فقد رفض السياسة الاستعمارية، لكنه في الوقت نفسه لم يرفض خلق علاقات واتصالات مع الإدارة الفرنسية ومواطنيها، وهذا ما طبع تدخلاته في شتى القضايا التي تهم الأهالي الجزائريين، مثل التعليم، القضاء، التجنيس، التنجيد الإجباري ...الخ.

وكان أول تدخل عبر فيه ابن رحال عن رفضه لهذه السياسة ما كتبه سنة 1887 في نصه حول تطبيق التعليم العام في البلاد العربية، الذي بين خلاله موقفه وموقف الجزائريين من السياسة الفرنسية تجاه التعليم، ومما جاء فيه: « في الحالة الراهنة باستطاعة الجزائري تقبل التعليم، أقول تقبل لأنه لم يطلبه، حتى أنه مستعد له، ما عدا بعض المستثنيات النادرة نظرا لبساطتها وسذاجتها تراه فخا منصوبا لسلب وطنيتها ودينها، ولا يجب أن نمقت هذا لأن الارتباط بعادات وعبادات الأجداد شيئان خيران...».

نفهم من هذا أن ابن رحال رفض سياسة فرنسا تجاه التعليم الأهلي، لكنه لم يعترض على التعليم الفرنسي بشرط أن يحفظ للجزائري لغته وهويته الثقافية، فبالرغم من انفتاحه الثقافي ، إلا أن الدين والهوية الثقافية يحتلان مركزا ومكانة كبيرة في فكره، ولهذا السبب عرض بديلا لسياسة الاندماج يتمثل في التعاون والتبادل مع فرنسا، وغرضه من ذلك هو سعيه لتقدم وتطور الجزائريين، والذي يتحقق بخلق علاقة

---

[20] -الجيلالي (محمد عبد الرحمن)، مرجع سابق، ج4، ص467.

تكاملية ترابطية تخدم الطرفين (الجزائري والفرنسي) وفي الوقت نفسه لا تؤثر سلبا على المصالح والقيم العربية الإسلامية، ففي إحدى تدخلاته قال: «امتلاك القارة الإفريقية من طرف فرنسا يعد حتميا، لكن الأمر الذي لا يمكن تجاهلههوالركيزة القوية التي يمتلكها العربي وهي الإسلام، فصار من الأفضل أن ننقد جزء من هذه الركيزة ... بالتأكيد فرنسا قد صنعت أو وضعت مكانا مناسبا له في سيطرتها –نقول سيطرة وليس استعمار– عندما غزت هذه البقاع الغنية، ذلك أنها تمكنت من التصرف في ملايين المسلمين المنظمين بطريقة جيدة، ومعها بإمكاننا خلق علاقات وارتباطات أبدية، وهذا يكون مع سياسة واضحة وذكية من طرفها نستطيع من خلالها المرور أو الظهور كمدافعين على الإسلام وأبطال له،وسنكون أنسب معلمين لهذا الدين، إفريقيا ستكون لنا»[21].

اعترف ابن رحال في هذه المداخلة بالوجود الفرنسي في الجزائر ورفض أن يطلق عليه اسم الاستعمار، بل جعله سيطرة؛ تمت بسبب ضعف الجزائر، لكنها سيطرة مكلفة بمهمة تحضير الجزائريين وليس تدميرهم، لأن الاستعمار مرادف لكلمة الدمار. هذا التحضر يكون عن طريق التفاهم بين الفرنسيين والجزائريين، وبخلق علاقة وطيدة تخدم الطرفين، وبالتالي تحقق الأهداف المرجوة من طرف فرنسا، وفي الوقت نفسه تحافظ على حالة الجزائريين، لأنها ستخدمهم دون أن تطبق سياسة الاندماج.

4– مشاركة ابن رحال في مؤتمر المستشرقين:

أثناء انعقاد الدورة الحادية عشر للمستشرقين سنة 1897، استغل ابن رحال المناسبة وقدم محاضرة بعنوان "مستقبل الإسلام" وهو بحث على قدر كبير من الأهمية، وهو نتاج بحث قدمه محمد بن رحال في المؤتمر 11 للمستشرقين في سبتمبر سنة 1897، حيث كان مراسلا للجمعية الجغرافية والأثرية لوهران رفقة زميلة قوديفري ديموبين، واختص هذا البحث بالتحدث عن الإسلام وعن خصائصه ومميزاته، وأوضح ابن رحال أن الإسلام ملائم لكل زمان ومكان، وأنه أهل للحداثة والتقدم دون الخروج عن النص. وجاء موقفه هذا في الوقت الذي شن فيه المستشرقون وبعض الكتاب الأوروبيون حملة عنيفة معادية للإسلام والمسلمين، نشروا خلالها خرافات وأكاذيب من نسج خيالهم، فرد عليهم محمد بن رحال، ولقد نال بحثه درجة رفيعة في الأوساط الدولية، وأكسبه المزيد من الاستحسان من طرفهم، وقد تم نشر بحثه في أهم المجلات ذيوعا وشهرة، وهي مجلة المسائل الدبلوماسية والاستعمارية "Questions Diplomatique et Coloniale" في عددها (12) سنة 1901.

إن المطلع على خطاب ابن رحال أمام مؤتمر المستشرقين يستشف عمق الإيمان والاعتزاز بالدين الإسلامي كما يلمس ثقافة ابن رحال الغنية والثرية فهو كان يخاطب الجماهير حول الإسلام ويضع بين الفينة والأخرى أمثلة عن التاريخ الأوروبي الذي لم يبدي إعجابه الكبير به وأوضح للمستمعين أن المسلم

---

[21]-Corriéaras (J), "L'assimilation des Arabes est- elle possible", Conférence Faite le 29 Avril 1904, InB.S.G.A.O, T24, p55.

الجزائري أو أي مسلم على وجه الكرة الأرضية يطمح في طمس هويته ودينه من أجل الحضارة الأوروبية فهذه الأخيرة لا يمكن تبنيها أو استيعابها بأعين مغمضة؛ فمستقبل الإسلام حسب ابن رحال لا يرتبط بمساعدة العالم المتحضر فقط بل يرتكز قبل ذلك على[22]:

- قيمة الإسلام الجوهرية
- قيمة أتباعه
- سياسات الدول الإسلامية

قدم ابن رحال تعريفا مبسطا للإسلام والمسلمين وأوضح أنه صالح لكل زمان ومكان، ولا يدعو للطبقية وألغى العبودية، ويمكن إضافة مبادئه وتشريعاته الحضارية إلى جملة المذاهب المعاصرة، بل إن هذه الأخيرة قد تستقي منه مجموعة من الأفكار يمكن استغلالها. وكان ابن رحال قد عرض في شرحه للإسلام عدالته وإنسانيته التي لا تتماشى والأنظمة الرأسمالية والتي تعين البسطاء لكنها تشاركهم في أرباحهم لأنها تمنحهم قروضا ربوية في الوقت التي يحظر فيه الإسلام القروض بفوائد[23].

إن رفعة وقوة الإسلام حسب ابن رحال وجدت عائقا أمامها يكمن في المجتمع الإسلامي المنغلق على نفسه والرافض لكل جديد والمسارع للتحريم دون الوقوف عند المسائل ودراستها وتحليلها، فلا يعقل أن جل ما جاءت به الحضارة الغربية ممنوع في الإسلام، حيث قال[24]:« الذي يميز المجتمع الإسلامي اليوم هو جهله العميق ليس فقط للفنون والعلوم المعاصرة، ولكن لإشياء أخرى كثيرة عن دينه فباستثناء بعض الممارسات الخارجية، وبعض المعتقدات الأساسية فالعبادة تحولت إلى كتلة من الأخطاء والأحكام المسبقة والخرافات...بالتأكيد لن نقبل بعيون مغمضة كل ما تسربه لنا الحضارة، فكثير من عطاياها يمكن الاستغناء عنها، مع ذلك يوجد العديد من المزايا يمكن استعارتها منها دون خطورة ولفائدتنا التامة»

في الحقيقة؛ إن محاضرة سي امحمد بن رحال حول مستقبل الإسلام هي شرح وتفسير لمعادلة الترابط التي اقترحها على فرنسا، والتي لن تندم إن طبقتها بدل الاندماج. فحسب رأي ابن رحال إن المسلم قادر على الحداثة وعلى استيعاب كل الجوانب الخاصة بالعلوم الدقيقة، وكل ما له علاقة بالتجارة والزراعة والصناعة، فالمسلم ليس إنسان جاهل ومتخلف فكريا كما يشاع عنه[25]. لكن هذا لا يعني أنه بأخذه من الحضارة الفرنسية يتخلى عن إيمانه وثقافته. قصد ابن رحال بالترابط ؛ أخذ المسلم للعلوم التي لا تتعارض مع دينه، وقد قال في هذا الشأن: «لدينا رجال ممتازون، وهم صالحون لكل إدراك وفهم ولكل تمثل»[26].

---

[22]-Si M'hammed Ben Rahal, l'Avenir de l'Islam, In : Questions Diplomatiques et Coloniales, T12, 1901, p 539 .

[23]–Ibid, p541.

[24]–Ibid, p 543.

[25]-Agéron (Ch-R), Histoire de l'Algérie…, Op.Cit, p232.

[26]-Ibid, p232.

إن كلمة تماثل أو الاندماج في مقولة ابن رحال هذه، قصد بها الانتقاء والاختيار من الحضارة الفرنسية، حيث واصل شرحه قائلا: «بالطبع، لا يجب أن نقبل بعيون مغمضة ما تقدمه لنا الحضارة، إن كثير من هداياها –التي لا تحسد عليها– يمكن تركها لها للحساب، ولكن الكثير منها يمكن استعارته دون خطر، ومن أجل إفادتنا الكبرى يمكننا تبني كل ميدان العلوم الصحيحة وقسم كبير من التنظيم الداخلي والسياسي، ونظام الأشغال العامة، والتعليم وكل ما يتعلق بالتجارة والصناعة والزراعة، دون تعديلات كبيرة لا شيء في العقيدة يناقضه، بالعكس كل شيء يحث عليها »[27].

وعلى حد تعبير "أجيرون" إن موقف ابن رحال قريب جدا من صيغة ليوبولد سيدر سونغر (Léopold Seder senghor) «الاندماج في الحضارة الغربية؟ نعم، الاندماج على طريقتها؟ لا»[28]، ولقد أوضح هذا الأمر محمد بن رحال في مؤتمر للجمعية الجغرافية والآثرية لولاية وهران المنعقد سنة 1902، حيث قال: «اندماج الأهلي في الحضارة الأوروبية هو استحالة وخيال لا يتحققان، وإن اندماجه لن يكون إلا وسط أرضية المصالح المادية، إننا نرى أن الأهلي لم يستشار تقريبا وكان مدعوا بطريقة رديئة لإبداء رأيه المناقض والمخالف للقضايا العامة، وإنه من الضرورة بمكان تحقيق هذا الأمل والرجاء»[29]. رفض ابن رحال الاندماج في الحضارة الأوربية عامة والفرنسية خاصة، ولكنه لم يمانع أخذ تقنيتها ومبادئها لتطوير مجتمعه بشرط أن لا تكون هذه الأخيرة معارضة لقيم ومبادئ المجتمع الجزائري المسلم، وهذا هو مقصد مقولة سونغر سابقة الذكر.

وقد أشار سي امحمد بن رحال إلى النقطعة الأضعف حسبه في الظاهرة الإسلامية وهي تشتت الخلافة الإسلامية إلى دويلات صغيرة، فقبل ذلك لم يكن هناك حدود جغرافية وسياسية تفصل بين المسلمين وهذا ما شكل قوة لهم عكس الآن[30]. ونحن لا نستغرب هذا الموقف من سي امحمد بن رحال فقد سبق واتهمته الإدارة الفرنسية أنه من دعاة الجامعة الإسلامية وقد رد عليها قائلا[31]:«الوطنية والجامعة الإسلامية لم أعرفهما في الجزائر، ولكن يمكن معرفتهما في يوم ما»

ولم يخفي ابن رحال امتعاضه من العالم المسيحي الذي شن حربا صليبية ضد الشعوب بما فيها الإسلامية قائلا[32]:« اتبعت الدول المسيحية وبارتياح ظاهر تيارا من الرأي محبذا للرؤى الخفية لكل أمة تمتلك جيشا قويا، أو أسطولا بحريا ضخما، وتم إعداد حرب صليبية ضد المسلمين ولأتفه الأسباب، تدافعوا على الأملاك وفتكوا بأرواح الناس، ونهبوا ثرواتهم، وحطموا مؤسساتهم وأحدثوا الفوضى في مجتمعاتهم، وحملوهم جميع الجرائم والخطايا، وهذا كله تحت قناع تحرير الشعوب وإدخال إصلاحات

---

[27]-Djeghloul (Abdelkader), Eléments d'histoire culturelle Algérienne, ENAL, Alger, 1984, p57.

[28]-Agéron(Ch-R),Histoire…, Op.Cit, p232.

[29]-Corriéras. (J), Op.Cit, p154-155.

[30]-Si M'hammed Ben Rahal, Op.Cit, p 544

[31]- Benhabiles (Cherif), L'Algérie Française vue par un Indigène, Algiers orientale, 1914, p127.

[32]- Ibid, p 547-548.

ونشر الحضارة... إن المسلم بإمكانه اتباع المسار الحضاري في مختلف درجاته باستثناء العقيدة، والأخلاق، والعائلة. إن المسلم الذي تزعم الحضارة وأدخلها إلى أوروبا بمقدوره أن يتبوأ مكانته إذا سمحت له الظروف، وإلى ذلك الحين فهو يملك مقاومة لا متناهية أن ينتظر الدهر كله دون دفاع ودون موت».

كان ابن رحال من الأوائل الذين رفضوا السياسة الفرنسية القائمة على الاندماج لما فيها من تعارض مع الدين الإسلامي، وقد سبق في ذلك الكثير من الجزائريين أمثال الأمير خالد الذي لم يبرز موقفه تجاه الاندماج حتى سنة 1919، وهو العام الذي أعلن فيه صراحة عن رفضه لهذه السياسة، وقد تجسد تأثره بموقف ابن رحال فتعبيره لا يكاد يختلف عنه، حيث قال: «...إن مشروع الدمج هو مشروع خيال لأن كتلة المسلمين لا تريده، وهي لا ترغب في نوعية المواطن الفرنسي ولا ترضى بحالتها بديلا، بسبب تمسكها بعقيدتها الدينية».

كان هدف ابن رحال هو المصالحة بين الفرنسيين والجزائريين والابتعاد قدر الإمكان عن كل عنف وتشدد، وحسب رأيه؛ أن هذه المصالحة ستخلق تعاون وعلاقة وطيدة تساهم في رقي الجزائريين دون فقدهم لهويتهم التي سيحققها بدون تأكيد الاندماج الكلي في فرنسا وتطبيق جل القوانين والتشريعات الفرنسية على كل الإدارات والمؤسسات الجزائرية (الأهلية) والتي جلها تتعارض وتختلف مع هذه القوانين، وفي هذا الشأن يقول: «عندما نفكر بإلحاق نصف قارة، تخفيض أو إنقاص البؤس عن الأهالي حتى ولو كان بالطريق الشرعي ليس بسياسة، كما أن التكفل بكل القضايا والجرائم، فإنه ليس بالمبرر وليس بحل، نحن نعتقد أنه ليس من الصعب القيام بالأفضل، لكن يجب الإسراع إذا لم نرد أن تكون كل مصالحة أمرا مستحيلا. إن القرن العشرين سيعرف بالضرورة سياسة فرنكوإسلامية أفضل توافق، أو ستكون الكارثة، إن الإسلام في غرب إفريقيا إن لم يتحضر من فرنسا ومن أجل فرنسا فإنه سوف يتحضر رغما عنها وضدها[33]».

كان محمد بن رحال يؤمن بالتعايش الودي بين الجزائريين والفرنسيين وكان يصبو إلى توطيد علاقات متزنة بين الطرفين، لكن دون تأثير سلبي على كلا الطرفين بخاصة الجزائريين الذين يدينون بدين ولهم عادات وثقافات تختلف عن التي عند الفرنسيين.

موقف ابن رحال الرافض لسياسة الاندماج ومواقف مؤيديه سواء كانوا من الجزائريين أو من الفرنسيين أنفسهم، زيادة على حالة عدم الاستقرار جراء هذه السياسة، وصلت أصداءها إلى فرنسا التي كانت تحت حكم "لوبي" (Loubet) الذي قرر القيام بزيارة للجزائر لسببين اثنين: الأول: هو سياسة

[33]-Agéron (Ch-R), Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919), T1-2, PUF, Paris, 1968, T2, p1029.& Si M'hammed Ben Rahal, Op.Cit, p 548.

الاندماج، والثاني: هو قضية المحاكم الرادعة ومدى شرعيتها، وقد كان لوبي أول رئيس دولة يزور الجزائر بعد زيارة نابليون الثالث[34].

وقد دامت رحلة لوبي من 15 إلى 26 أفريل سنة 1903، زار خلالها الجزائر من شرقها إلى غربها، ومن بين المدن التي توقف عندها مدينة تلمسان، فكانت الفرصة لمحمد بن رحال لمقابلة الرئيس الفرنسي وإيضاح موقفه من سياسة الاندماج. وفي الواقع فإن لوبي كان من المعارضينلسياسة الاندماج، فقد أوضح في خطاباته إلى الجزائريين والفرنسيين أنه كان شخصيا مع معاملة الجزائر كمستعمرة مع تركها تحتفظ بتقاليدها الخاصة ودينها وقوانينها، بالإضافة إلى ذلك خص الجزائريين بخطاب قال لهم فيه «إن دماءكم قد سالت في ميدان معاركنا مع دماء الجنود الفرنسيين في جميع حروبنا بالقارة الأوروبية، في الهند الصينية، وفي مدغشقر»، مؤكدا لهم أن فرنسا ستتركهم أحرارا يبقون على حضارتهم، وبالتالي لا ضرورة للاندماج مصرحا «ستضمن لكم فرنسا ممارسة جميع الحريات التي هي عزيزة عليكم بما في ذلك الإبقاء على تقاليدكم القديمة»[35].

وقد زاد لوبي في تفهمه لقضايا الجزائريين، أنه نادى بسياسة الجزائر جزائرية، التي كان يؤيدها فريق صغير في المجلس الوطني الفرنسي[36]، هذا الموقف من طرف لوبي ساعد وسهّل لمحمد ابن رحال إبراز موقفه من الاندماج عامة ومن سياسة التجنيس خاصة، حيث خاطب الرئيس الفرنسي بصراحة شديدة قائلا: «إن المسلمين لم يطالبوا أبدا بالمواطنة الفرنسية، لكن فقط بتمثيل رسمي»[37]، وزاد في صراحته أن قال: «إن العربي لا يقبل مطلقا الجنسية التي تفرض عليه التخلي عن أحواله الشخصية»[38]، وكان محمد بن رحال قد تعرض لمسالة تجنيس الجزائريين في تقريره الذي قدمه للجنة التحقيق المشيخية برئاسة جول فيري سنة 1891 رفقة زميله الدكتور بن العربي، حيث خاطب جول فيري قائلا: «إن إلزام الأهالي [كذا] التجنس بالجنسية الفرنسية هو عبارة عن تسعير نار الفتنة لسائر جهات القطر، وأن الاستمرار نحو تحقيق هذا الهدف خطر عظيم على الحكومة؛ ذلك لأن حرية التجنس لا تلائم أصول الشريعة الإسلامية لأن المتجنس له ما للفرنسيين وعليه ما عليهم قبالة جميع أحكامهم، وذلك مخالف لما أتت به الشريعة الإسلامية»[39].

---

[34]–سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية...، مرجع سابق، ج2، ص89.

[35]-Algérie "Le président et les indigènes", in L'Afrique Française, Op.Cit, Mai 1903, p159.

[36]–سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية...، مرجع سابق، ج2، ص90.

[37]-Agéron (Ch-R), "Si M'hammed…", Op.Cit, p333.

[38]-Agéron (Ch-R) , Histoire…, Op.Cit, P232.

[39]–الجيلالي (عبد الرحمن)، مرجع سابق، ج4، ص463.

كان التجنيس زاوية من زوايا الاندماج التي رفضها محمد بن رحال، حتى أنه أشار إلى وظيفة الوالي العام (Gouverneur Général) التي رآها مجرد صورة ومرآة عاكسة لمصالح الكولون. فإذا كانت فرنسا تدعي بأنها ستحقق العدل والمساواة بين الجزائريين والكولون، فلماذا لا يكون الوالي العام برهانا صادقا على ادعائها؟ لمس محمد بن رحال هذه الحقيقة بيديه، وعرف أن الحاكم العام لا طاقة له في مواجهة الظلم واللامساواة، ولذلك واجه ابن رحال الحكومة الفرنسية فاضحا حقيقة الوالي العام ومطالبا بإصلاح وتعديل اختصاصاته لتكون في خدمة الكولون والأهالي معا، قائلا: «...نرغب أن يكون الوالي العام حرا عام التصرف قوي السلطان، لا مسؤولية لأحد عليه إلا مجلس الوزراء، وليس كما هو الآن موضوع تحت تصرف الكولون لا يستعملونه إلا لمضرة الأهالي[كذا] »[40].

رأى ابن رحال في فرنسا المنقذ للجزائريين والمسلمين بصفة عامة ولتخليصهم من حالة الجهل والتخلف والتشتت التي يغوصون فيها، لكن دون التخلي عن الأصول والأحوال الشخصية والعادات والتقاليد، لأنها الصور الحية الممثلة للمجتمع الإسلامي، فقد رفض الاندماج لأنه ضد هذه القيم، لكنه لم يرفض الترابط والمصالحة بين فرنسا والجزائر في إطار تحديث المجتمع الجزائري لكن في سياق لا يتعارض مع القيم الثقافية والهوية الدينية للمجتمع الجزائري. ولقد قدم محمد بن رحال صورة عميقة التأثير عن فكرته حول الارتباط مع فرنسا دون الاندماج، قالها لزميله بول أزان «نحن في الجزائر كالمسافرين على متن عربة واحدة ويحاول كل منا تنظيم وترتيب الوضع ليشعر بالارتياح قدر المستطاع، ففي البداية ينظر الواحد منا محاولا اختراق الوضع الذي هو فيه وربما تجدنا نتبادل كلمات لاذعة لا تروق لبعضنا البعض لكن مع مرور الوقت ندرك أنه من الضروري أن نقوم مقام الرجال الشجعان فنبدأ في دردشات تكون نتيجتها صداقات وطيدة، ويحاول كل منا تقديم الخدمة للآخرين بقدر المستطاع»[41].

---

[40]–المرجع نفسه، ص465.

[41]-Azan (Paul), Recherches d'une Solution de la question indigène en Algérie, Augustine Challamel, Librairie Maritime et colonial, Paris, 1903,p77.